الحرب الإسرائيلية الفلسطينية: هكذا قلبت غزة الطاولة على سجانيها

الأحد 15 أكتوبر 2023 01:50 م

لفت "ديفيد هيرست" إلى أن دولة الاحتلال الإسرائيلي شهدت انقلاب دراماتيكي في الأدوار خلال الأيام الماضية بالنسبة لدولة معتادة على ممارسة السيطرة الكاملة على سبعة ملايين فلسطيني.

وقال "هيرست" في تحليل نشره موقع "ميدل إيست آي": "ظل سكان سديروت يختبئون في أقبية منازلهم ويتساءلون متى سيأتي جيشهم لحمايتهم، بدلا من سكان حوارة أو نابلس أو جنين، الذين يعانون من الصدمة الليلية بسبب هجمات المستوطنين وغارات الجيش الإسرائيلي".

احتجز مسلحون فلسطينيون العشرات من الجنود والمدنيين الإسرائيليين، الذين يتواجدون الآن في الأقبية في جميع أنحاء غزة.

وأضاف "هيرست": "لا ينبغي لأحد أن يتذمر من هذا. لقد قُتل مدنيون أبرياء، وأصيبت الأمهات الحوامل بالرعب، ومات أطفال. ووقع الهجوم على أي شخص صادف وجوده في طريقه، بغض النظر عن السياسة أو الجنس أو العمر".

وفقا لآخر التقارير، من الممكن أن يكون هناك ما يقرب من 100 أسير الآن في غزة. تكبدت قوات الجيش والشرطة الأفضل تجهيزًا في الشرق الأوسط خسائر لم يسمع بها من قبل - آخر حصيلة، بما في ذلك المدنيين، هي 600 قتيل وأكثر من 1500 جريح - حيث تم محاصرتهم في معارك مسلحة محتدمة من شارع إلى شارع في القرى والبلدات المحيطة بغزة.

فشل استخباراتي هائل

وهذه هي المرة الأولى التي نشهد فيها هذه المشاهد منذ حرب عام 1948 التي أدت إلى النكبة الأولى ودولة إسرائيل، هذه المشاهد أسوأ بكثير بالنسبة للإسرائيليين من الحرب العربية الإسرائيلية عام 1973، والتي اندلعت قبل خمسين عامًا تقريبًا.

وقال المحلل الإسرائيلي المخضرم "ميرون رابوبورت" لموقع "ميدل إيست آي": "في عام 1973، قاتلنا بجيش مدرب. وهنا نتحدث عن أشخاص لا يملكون سوى الكلاشينكوف. إنه أمر لا يمكن تصوره. إنه فشل عسكري واستخباراتي ستستغرق إسرائيل وقتًا طويلًا للتعافي منه من حيث ثقتها بنفسها".

اختراق السياج الذي يتمتع بأفضل وسائل الدفاع والمراقبة على طول حدود إسرائيل، والتوغل بهذا الحجم لدرجة الاستيلاء على المقر العسكري لفرقة الجيش التي تسيطر على غزة، يمثل أسوأ فشل تعاني منه أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية في تاريخها.

وحققت حماس عنصر المفاجأة الكاملة؛ حيث أصيبت وحدة الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية الشهيرة 8200 ـ وهي الوحدة القادرة على سماع كل المكالمات الهاتفية التي تجري في غزة ـ بالصدمة، كما أصيب جهاز الأمن الداخلي "الشين بيت".

ويتساءل الإسرائيليون كيف أخطأ جيشهم إلى هذا الحد، إذ أفادت التقارير بنشر 33 كتيبة في الضفة الغربية المحتلة لحماية المستوطنين، في حين ترك الحدود الجنوبية عرضة للهجوم.

كل هذا أثار موجة صادمة بحجم تسونامي تجتاح أمة معتادة على أن تكون أسياد الأرض. ومرة أخرى، هم الذين يفترض بهم أن يفجروا المفاجآت، وليس رعاياهم.

يعود أقوى

قبل أسبوعين فقط لوح رئيس الوزراء الإسرائيلي "بنيامين نتنياهو" أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة بخريطة طمس كل الأراضي الفلسطينية.

وقال "نتنياهو": "أعتقد أننا على أعتاب تقدم أكثر دراماتيكية – سلام تاريخي بين إسرائيل والسعودية. هذا السلام سيقطع شوطًا طويلًا نحو إنهاء الصراع العربي الإسرائيلي".

ولم يختلف المسؤولون الأمريكيون، حيث أكد أحد كبار المسؤولين في الإدارة أن "المنطقة مستقرة كما كانت منذ سنوات عديدة".

وأردف "هيرست": "وكأنهم أعضاء في الجوقة نفسها، كانت واشنطن وتل أبيب والرياض يتحدثون عن احتمال توقيع السعودية على اتفاق تطبيع مع إسرائيل، كما لو كان هذا في حد ذاته الطريق إلى السلام. لقد أصبحوا جميعًا واثقين جدًا من إخراج الفلسطينيين من هذه المعادلة، كما لو أن جميع سكان فلسطين سيرفعون في يوم من الأيام علمهم وهويتهم الوطنية، ويذعنون لدور عمال مغتربين في أرض شخص آخر".

تم الآن إرسال رسالة واضحة للغاية مفادها أن الفلسطينيين موجودون بالفعل، وأنهم ليسوا على مقربة من الغزو.

وفي كل مرة تم محوها كقوة مقاتلة - في أعوام 1948 و1967 و1973 وفي كل عملية منذ ذلك الحين - يعود جيل جديد من المقاتلين أقوى. ولا توجد نسخة سابقة من حماس أو حزب الله أقوى من تلك التي تواجهها إسرائيل اليوم.

وقال "هيرست": "أطلقت حماس على هجومها على جنوب إسرائيل اسم "طوفان الأقصى" لسبب وجيه للغاية. هذا الهجوم لم يأت من فراغ".

الأقصى الوضع الراهن

قبل 33 عامًا بالضبط، في 8 أكتوبر 1990، حاولت مجموعة من المستوطنين وجماعة "مؤمنو جبل الهيكل"، وهي جماعة يمينية متطرفة دعت إلى طقوس التضحية في جبل الهيكل - وهو عمل يحظره كبير حاخامات إسرائيل - وضع حجر الأساس للهيكل الثالث في المسجد الأقصى.

قاوم السكان الفلسطينيون في البلدة القديمة، وفتح الجيش الإسرائيلي النار، وفي غضون دقائق، قُتل أكثر من 20 فلسطينيًا، وأصيب واعتقل مئات آخرون.

ومنذ ذلك الحين، تم تحذير القادة الإسرائيليين باستمرار من ضرورة الحفاظ على الوضع الراهن في الموقع المقدس الذي تطالب به الديانتان، وفي كل عام تجاهلوا تلك التحذيرات وأداروا الأمور.

وليس أكثر من ذلك اليوم، عندما تم اقتحام المسجد الأقصى مرارًا وتكرارًا للسماح للمصلين اليهود بالوصول إلى الموقع الإسلامي حيث تُحظر الزيارات والصلوات والطقوس غير المرغوب فيها من قبل غير المسلمين، وفقا للاتفاقيات الدولية التي استمرت لعقود من الزمن.

كانت هذه التوغلات العنيفة في السابق من عمل مجموعات هامشية من المتطرفين. ولكن الآن يقودهم الآن "إيتامار بن غفير"، الذي يستعرض تحت منصب وزير الأمن القومي الإسرائيلي.
يوما بعد يوم، يتم بلور سياسة بدعم من نواب الليكود، مثل "عميت هاليفي"، لتقسيم المسجد الأقصى بين اليهود والمسلمين، تمامًا كما تم تقسيم المسجد الإبراهيمي في الخليل في التسعينيات.
ولم يسلم "بن غفير"، الوزير الذي يتمتع بسلطة تعيين رئيس شرطة إسرائيل، المسيحيين من سياساته الفاشية. عندما ألقت الشرطة القبض على خمسة يهود أرثوذكس بتهمة البصق على المصلين المسيحيين في البلدة القديمة في القدس، أجاب الوزير: "ما زلت أعتقد أن البصق على المسيحيين ليس قضية جنائية. أعتقد أننا بحاجة إلى العمل على ذلك من خلال التعليم. ليس كل شيء يبرر الاعتقال".

الصمت الدولي
العجلة تستمر في الدوران، سواء كان ذلك في الأقصى أو في حصيلة القتلى اليومية المروعة من الفلسطينيين، ومعظمهم من الشباب. لاحظت "هيومن رايتس ووتش" أن هذا العام، حتى أغسطس، كان في طريقه لأن يكون الأكثر دموية بالنسبة للأطفال الفلسطينيين في الضفة الغربية المحتلة منذ أكثر من 15 عامًا، حيث قُتل ما لا يقل عن 34 طفلا حتى أواخر أغسطس.
وقد قوبل هذا بصمت المجتمع الدولي، الذي يركز بشدة على الطريق التجاري بين البحر الأحمر وحيفا.
ويرى "هيرست" أنه إذا كان أي شخص يتحمل المسؤولية عن إراقة الدماء والمذابح التي ارتكبت بحق المدنيين في نهاية الأسبوع الماضي، فإنهم كل الزعماء الأجانب هم الذين يقولون إن إسرائيل تشاطرهم قيمهم. كل هؤلاء القادة يسمحون لإسرائيل بإملاء سياستها، على الرغم من أن ذلك يقوض سياساتهم بشكل صارخ.
ومهما حدث في غزة في الأيام والأسابيع القليلة المقبلة ـ وقد شنت إسرائيل العنان لأعمال انتقامية وحشية، بصرف النظر عن غياب أي هدف عسكري ـ فإن حماس حققت بلا أدنى شك نصراً كبيراً، كما أحضرت الصحفيين ومشغلي الكاميرات الذين سجلوا كل ما حدث. هذه اللقطات ستخاطب كل شاب فلسطيني وعربي يراها.
وأظهرت اللقطات الفلسطينيين وهم يعودون إلى الأراضي التي طرد منها آباؤهم؛ حيث شكل اللاجئون 67% من سكان غزة، معظمهم من الأراضي المحيطة بغزة التي حررتها حماس مؤقتا.
وفي نهاية هذا الأسبوع، مارسوا بقوة السلاح حق العودة الذي أُزيل من طاولة المفاوضات قبل 23 عامًا.
ستخبر تلك اللقطات جميع الفلسطينيين أن المقاومة ليست قضية خاسرة في مواجهة عدو قوي للغاية. وستخبرهم أن إرادتهم في المقاومة أقوى من إرادة المحتل.

تغير المشهد إلى الأبد
وأكد "هيرست" أن المدنيين الفلسطينيين سيدفعون الآن ثمنًا باهظًا بينما تسعى إسرائيل إلى الانتقام التوراتي. لقد تم بالفعل قطع الكهرباء عن أكثر من مليوني شخص في القطاع. ولكن بعد انتهاء الأحداث، لن يكون العمل كالمعتاد.
بعد أن أنكروا على مدى أجيال وجود النكبة، يعلن أعضاء الكنيست الإسرائيليون الآن نكبة أخرى؛ حيث غرد "أرييل كالنر" قائلا: "اسقطوا العدو الآن! هذا اليوم هو بيرل هاربور (غارة جوية نفذتها اليابان على أمريكا عام 1941) بالنسبة لنا. وسنظل نتعلم الدروس. الآن لديهم هدف واحد: النكبة!".
"نتنياهو" ليس متأخرًا كثيرًا في دعوته لجميع الفلسطينيين في غزة إلى مغادرة منازلهم، كما لو كان هناك مكان يذهبون إليه.
إذا كانت إسرائيل تريد حقاً إشعال حرب إقليمية، فإن محاولة تكرار ما حدث في عام 1948 ستكون أسرع طريقة للقيام بذلك. ولن تتسامح مصر ولا الأردن مع ذلك، وستكون اتفاقيات السلام مع إسرائيل لاغية وباطلة. ومن شأن الحرب الإقليمية أن تشمل حركة المقاومة الأفضل تجهيزاً في المنطقة. ومن الممكن أن يكون حزب الله، الذي بدأ يوم الأحد تبادل إطلاق النار مع إسرائيل على الحدود اللبنانية، متردداً في المشاركة، ولكن يمكن جره إليها؛ حيث يشير حزب الله منذ بعض الوقت إلى أن التوغل البري في غزة سيكون بمثابة خط أحمر بالنسبة له. خلال العام، قام القادة السياسيون لحماس بزيارة بيروت وعقدوا اجتماعات مع الأمين العام لحزب الله "حسن نصر الله". وتقول بعض المصادر، إنه تم بالفعل اتخاذ قرار بشأن التعبئة العامة. من كل هذا يمكن الافتراض أن إصبع حزب الله على الزناد.
سيكون على إسرائيل أيضاً أن تتعامل مع احتمال احتجاز حماس لعشرات الرهائن. إن توجيه "هانيبال"، وهو أمر عسكري سري للغاية تقضي إسرائيل بموجبه بضرب قواتها لمنعها من الوقوع في أيدي العدو، لم يعد قابلاً للتطبيق.
كما أن فكرة احتجاز 2.3 مليون شخص في غزة في قفص وإبقائهم على نظام غذائي منخفض البروتين، في حين يستطيع سجانهم أن يرمي المفاتيح بعيدًا.
وتابع "هيرست": "هذا هو الانفجار الذي حذرت أنا وآخرون من أنه قادم منذ بعض الوقت. لقد قلت إنه إذا لم تتراجع إسرائيل عن مسارها وتبدأ مفاوضات جدية حول حل عادل لهذه الأزمة يمنح الفلسطينيين حقوقا مساوية لليهود، فسيكون هناك رد. لقد حدث ذلك الآن. عندما ينتهي الأمر، لن يكون المشهد هو نفسه".
في الوقت الذي تم فيه القضاء على ثلاث من عائلات غزة الممتدة بسبب الضربات المباشرة على منازلها بالقنابل الإسرائيلية الدقيقة، قال رئيس وزراء الدولة التي تتحمل مسؤولية أكبر عن هذا الصراع أكثر من أي دولة أخرى "ريشي سوناك"، إن بريطانيا تقف إلى جانب إسرائيل بشكل لا لبس فيه، وإنها مستعدة للوقوف إلى جانب إسرائيل بشكل لا لبس فيه.
وفي الوقت نفسه، قال وزير الداخلية إن أي شخص يتم القبض عليه وهو يتظاهر في الشوارع تضامنا مع فلسطين سيتم اعتقاله. وبالتالي تخلت المملكة المتحدة عن أي دور مستقبلي يمكن أن تلعبه في إنهاء هذا الصراع المروع.
وختم "هيرست": "مسؤولية ما حدث خلال عطلة نهاية الأسبوع تقع على عاتق كل أولئك الذين خدعوا بالاعتقاد بأن الأجيال المتعاقبة من القادة الإسرائيليين يمكن أن تفلت من فعل ما تشاء. وتقع المسؤولية على عاتق كل أولئك، بما في ذلك معظم الطغاة العرب، الذين توقفوا عن التفكير في الفلسطينيين كشعب. وسيتعلم كل منهم درسًا مؤلمًا في الأسابيع والأشهر القادمة".
https://www.middleeasteye.net/opinion/israel-palestine-war-gaza-israel-tables-turned-gaolers